

صيد الخاطر

170 - - فصل : نية المؤمن ابلغ من عمله .

و ما ابتلى الإنسان قط بأعظم من علو همته فإن من علت همته يختار المعالي .
و ربما لا يساعده الزمان وقد تضعف الآلة فيبقى في عذاب .
و إنني أعطيت من علو الهمة طرفا فأنا به في عذاب و لا أقول ليته لم يكن فإنه إنما يحلو العيش بقدر عدم العقل و العاقل لا يختار زيادة اللذة بنقصان العقل .
و لقد رأيت أقواما يصفون علو هممهم فتأملتها بها في فن واحد و لا يبالون بالنقص فيما هو اهم قال الرضي : .

(و لكل جسم في ... النحول بلية و بلاء جسمي من تفاوت همتي) .
فنظرت فإذا غاية أمله الإمارة .
و كان ابو مسلم الخرساني في حال شببته لا يكاد ينام فليل له في ذلك فقال : ذهن صاف و هم بعيد و نفس تتوق إلى معالي الأمور مع عيش كعيش الهمج الرعاع .
قيل : فما الذي يبرد غليلك ؟ قال : الظفر بالملك .
قيل : فاطلبه قال لا يطلب إلا بالأهوال .
قيل : فاركب الأهوال قال : العقل مانع .
قيل : فما تصنع ؟ قال : سأجعل من عقلي جهلا و أحاول به خدرا لا ينال إلا بالجهل .
و أدبر بالعقل ما لا يحفظ إلا به فإن الخمول أخو العدم .
فنظرت إلى حال هذا المسكين فإذا هو قد ضيع أهم المهمات و هو جانب الآخرة و انتصب في طلب الولايات فكم فتك و قتل ؟ حتى نال بعض مراده من لذات الدنيا .
ثم لم يتنعم في ذلك غير ثمان سنين .
ثم اغتيل و نسي تدبير العقل فقتل و مضى إلى الآخرة على أقبح حال .
و كان المتنبي يقول : .

(و في الناس من يرضى بميسور عيشه ... و مركوبه رجلاه و الثوب جلده) .
(و لكن قلبا - بين جنبي - ماله ... مدى ينتهي بي في مراد أحده) .
(يرى جسمه يكسي شفوفا تربه ... فيختار أن يكسي دروعا تهده) .
فتأملت هذا الآخر فإذا نهيمته فيما يتعلق بالدنيا فحسب .
و نظرت إلى علو همتي فرأيتها عجبا و ذلك أنني أروم من العلم ما أتيقن أنني لا أصل إليه لأنني أحب نيل كل العلوم على إختلاف فنونها .

و أريد إستقصاء كل فن هذا أمر يعجز العمر عن بعضه .

فإن عرض لي ذو همة في فن بلغ منتهاه رأيته ناقصا في غيره فلا أعد همته تامة .
مثل المحدث فاته الفقه و الفقيه فاته علم الحديث فلا أرضى بنقصان من العلوم إلا حادثا
عن نقص الهمة .

ثم أني أروم نهاية العمل بالعلم فأتوق إلى ورع بشر و زهادة معروف و هذا مع مطالعة
التصانيف و إفادة الخلف و معاشرتهم بعيد .

ثم إنني أروم الغنى عن الخلق و أستشرف الإفضال عليهم و الإشتغال بالعلم مانع من الكسب و
قبول المنن مما تأباه الهمة العالية .

ثم إنني أتوق إلى طلب الأولاد كما أتوق إلى تحقيق التصاميم لبقى الخلفان نائبين عني بعد
التلف و في طلب ذلك ما فيه من شغل القلب المحب للتفرد .

ثم إنني أروم الاستمتاع بالمستحسنيات و في ذلك إمتناع من جهة قلة المال ثم لو حصل فرق
جمع الهمة .

و كذلك أطلب لبدني ما يصلحه من المطاعم و المشارب فإنه متعود للترفه و اللطف و في قلة
المال مانع و كل ذلك جمع بين أضداد .

فأين أنا و ما و صفته من حال من كانت غاية همته الدنيا ؟ و أنا لا أحب أن يخدش حصول
شيء من الدنيا وجه ديني بسبب و لا أن يؤثر في علمي و لا في عملي .

فواقلني من طلب قيام الليل و تحقيق الورع مع إعادة العلم و شغل القلب بالتصانيف و
تحصيل ما يلائم البدن من المطاعم .

و وا أسفي على ما يفوتني من المناجاة في الخلوة مع ملاقة الناس و تعليمهم .
و يا كدر الورع مع طلب ما لا بد منه للعائلة .

غير أنني قد إستسلمت لتعذبي و لعل تهذيبي في تعذبي لأن علو الهمة تطلب المعالي
المقربة إلى الحق D .

و ربما كان الحيرة في الطلب دليلا إلى المقصود و ها أنا أحفظ أنفاسي من أن يضيع منها
نفس في غير فائدة .

و إن بلغ همي مراده و إلا فنية المؤمن أبلغ من عمله